

٤ - صعاليك الصحافة . . .

تمه

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وجاء أبو عثمان وفي برُوز عينيه ما يجعلهما في وجهه شيئاً كعلامتي تعجب ألقهما الطبيعة في هذا الوجه . وقد كانوا يلقبونه (الحَدَقِي) فوق تلقيبه بالجاحظ ، كأن لقباً واحداً لا يبين عن قبح هذا التور في عينيه إلا برادف ومساعد من اللغة وما بدكرت اللقبين إلا حين رأيت عينيه هذه المرة . وانحطت في مجلسه كأن بعضه يرمى بعضه من سخط وغيظ ، أو كأن من جسمه مالا يريد أن يكون من هذا الخلق المشوه ، ثم نصب وجهه يتأمل ، فبدت عيناه في خروجهما كأنهما تهتمان بالفرار من هذا الوجه الذي تحيا الكتابة فيه كما يحيا الهم في القلب ؛ ثم سكنت عن الكلام لأن أفكاره كانت تكلمه .

فقطعت عليه الصمت وقلت : يا أبا عثمان رجعت من عند رئيس التحرير زائداً شيئاً أو ناقصاً شيئاً فما هو يرحمك الله ؟ قال : رجعت زائداً أني ناقص ، وههنا شيء لا أقوله ، ولو أن في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين . لو قفوا على عمك وأمثال عمك من كتاب الصحف يتعجبون لهذا النوع الجديد من الشهداء وقال ابن يحيى النديم : دعاني المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال : أشدني قول عمارة في أهل بغداد . فأشدته :

ومن يشتري مني ملوك مخرم أبغ حَسَنًا وابني هشام بدرهم وأعطى رجاء ، بعد ذلك زيادة وأمنح ديناراً ، بغير تدنم قال أبو عثمان :

فإن طلبوا مني الزيادة زدتهم ، وأبادُلف والمستطيل بن أكرم

(١) سب المذكور زكي مبارك مقالا في جريدة المصري الفراء زعم فيه أننا طنا إن الصحافة لا تنجح إلا في أيدي الصعاليك ، ولا ندري كيف أحسن هذا المعنى . ثم تهددنا !!! فقال : ما رأيك إذا وقف لك أحد الصحفيين (ولله يسى نفسه) في معركة قاسية !!! ويزماك بحب التكلف والابتدال في ظلم الاشياء والبلب ، ما رأيك إذا حلك رجل منهم (ولله يسى نفسه) على طعنه والتقى بك في هاربة التاريخ لتبش مع صصعة بن صفوان ؟ - المبلغ خطباء العرب وانظروهم -

وجوابنا لصاحبنا هذا : أن وزارة الداخلية اطلعت على مقاله فأمرت جميع المحال التي تباع لعب الأطفال - ألا يبيعوا معركة قاسية ، ولا هاربة تاريخ . . .

وبلى على هذا الشاعر . اثنان بدرهم ، واثنان زيادة فوقهما العظم الدرهم ، واثنان زيادة على الزيادة لجلالة الدرهم ؛ كأنه رئيس تحرير جريدة يرى الدنيا قد ملئت كتباً . ولكن ههنا شيئاً لا أقوله وزعموا أن كسرى أبرويز كان في منزل امرأته شيرين ، فأناه صياد بسمكة عظيمة فأعجب بها وأمر له بأربعة آلاف درهم فقالت له شيرين : أمرت الصياد بأربعة آلاف درهم ، فإن أمرت بها لرجل من الوجوه ، قال : إنما أمر لي بمثل ما أمر للصياد . فقال كسرى : كيف أصنع وقد أمرت له ؟

قالت : إذا أتاك فقل له : أخبرني عن السمكة ، أذكر هي أم أنتي ؟ فإن قال أنتي ، فقل له : لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بقرينها ، وإن قال غير ذلك فقل له مثل ذلك .

فلما غدا الصياد على الملك قال له : أخبرني عن السمكة ، أذكر هي أم أنتي ؟ قال : بل أنتي . قال الملك : فأنتي بقرينها . فقال الصياد عمر الله الملك ، إنها كانت بكرأ لم تزوج بعد . . .

قلت : يا أبا عثمان فهل وقعت في مثل هذه المعضلة مع رئيس التحرير ؟

قال : لم ينفع عمك أن سمكته كانت بكرأ . فأنما يريدون إخراجهم من الجريدة وما بلاغة أبي عثمان الجاحظ بجانب بلاغة التلغراف وبلاغة الخبر وبلاغة الأرقام وبلاغة الأصفر وبلاغة الأبيض . . . ولكن ههنا شيئاً لا أريد أن أقوله .

وسمكتي هذه كانت مقالة جردتها وأحكمتها وبلغت بألفاظها ومعانيها أعلى منازل الشرف وأسنى رتب البيان وجعلتها في البلاغة طبقة وحدها . وقبل أن يقول الاوريون (صاحبة الجلالة الصحافة) قال المأمون : الكتاب ملوك على الناس . فأراد عمك أبو عثمان أن يجعل نفسه ملكاً بتلك المقالة فإذا هو بها من (صعاليك الصحافة) .

لقد كانت كالعروس في زينتها ليلة الجلوة على محبها ، ما هي إلا الشمس الضاحية ، وما هي إلا أشواق ولذات ، وما هي إلا اكتشاف أسرار الحب ، وما هي إلا هي . فإذا العروس عند رئيس التحرير هي المطلقة ، وإذا المعجب هو المضحك ، ويقول الرجل : أما نظرياً فنعم ، وأما عملياً فلا ، وهذا عصر خفيف يريد الخفيف ، وزمن عامي يريد العامي ، وجمهور سهل يريد السهل ، والفصاحة هي إعراب الكلام لسياسة بقوى البيان والفكر واللغة ، فهي اليوم قد خرجت من فنونها واستقرت في علم النحو

عملاً للبطل ، تفضله الإبرة التي تغمل للخياط . وماذا يملك عمك أبو عثمان ؟ يملك مالا ينزل عنه بدول الملوك ، ولا بالدنيا كلها ، ولا بالشمس والقمر ، إذ يملك عقله وبيانه . على أنه مستأجر هنا بعقله وبيانه يعقل ما شاؤا ويكتب ما شاؤا .

لك الله أن أصدقك القول في هذه الحرفة اليومية . إن الكاتب حين يخرج من صحيفة إلى صحيفة ، تخرج كتابته من دين إلى دين . . .

ورأيت شيخنا كأنما وضع له رئيس التحرير مثل البارود في دماغه ثم أشعله . فأردت أن أمازحه وأسرى عنه ، فقلت : اسمع يا أبا عثمان . جاءتني بالأمس قضية يرفعها صاحبها إلى المحكمة ، وقد كتب في عرض دعواه : إن جار بيته غصبه قطعة من أرض فئانه الذي تركه حول البيت ، وبني في هذه الرقعة داراً ، وفتح لهذه الدار نافذات . فهو يريد من القاضي أن يحكم برد الأرض المغصوبة ، وهدم هذه الدار المبنية فوقها ، و . . . وسد نافذاتها المفتوحة . . .

فضحك الجاحظ حتى أمسك بطنه يده وقال : هذا أديب عظيم كبعض الذين يكتبون الأدب في الصحافة : كثرت ألفاظه ونقص عقله . « وسئل بعض الحكماء : متى يكون الأدب شراً من عدمه ؟ قال : إذا كثر الأدب ونقصت القريحة . وقد قال بعض الأولين : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ؛ كان ختفه في أغلب خصال الخير عليه ؛ وهذا كله قريب بعضه من بعض (١) والأدب وحده هو المتروك في هذه الصحافة لمن يتولاه كيف يتولاه إذ كان أرخص ما فيها ، وإنما هو أدب لأن الأمم الحية لا بد أن يكون لها أدب ، ثم هو من بعد هذا الاسم العظيم ملء فراغ لا بد أن يملأ . وصفحة الأدب وحدها هي التي تظهر في الجريدة اليومية كبقعة الصدأ على الحديد تأكل منه ولا تعطيه شيئاً .

ثم يأتي من تترك له هذه الصفحة إلا أن يجعل نفسه (رئيس تحرير) على الأدباء ، فما يدع صفة من صفات النبوغ ولا نعتاً من نعوت العبقرية إلا تحلّه نفسه ووضعه تحت ثيابه ؛ وما أيسر العظمة وما أسهل منالها إذا كانت لا تكلفك إلا الجراءة والدعوى والزعم ، وتلفيق الكلام من أعراض الكتب وحواشي الأخبار وقد يكون الرجل في كتابته كالعامة ، فاذا عبته بالركاكة

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ

وحسبك من الفرق بينك وبين القارئ العامي : أنك أنت لا تلحن وهو يلحن

قال أبو عثمان : وهذه أكرمك الله منزلة يقل فيها الخاصي ويكثر العامي فيوشك ألا يكون بعدها إلا غلبة العامية ، ويرجع الكلام الصحافي كله سوقياً بلدياً (حنشياً) ، وينقلب النحو نفسه وما هو إلا التكلف والتعرج والتعرج كما يرون الآن في الفصاحة ، والقليل من الواجبات ينتهي إلى الأقل ، والأقل ينتهي إلى العدم ، والانحدار سريع يبدأ بالخطوة الواحدة ثم لا تملك بعدها الخطى الكثيرة

لا جرم فسد الذوق وفسد الأدب وفسدت أشياء كثيرة كانت كلها صالحة ، وجاءت فنون من الكتابة ما هي إلا طبائع كتبها تعمل فيمن يقرؤها عمل الطبايع الحية فيمن يخالطها . ولو كان في قانون الدولة تهمة إفساد الأدب أو إفساد اللغة ، لمقبض على كثيرين لا يكتبون إلا صناعة لوز ومسللة فراغ وفساداً وإفساداً . والمصيبة في هؤلاء ما يزعمون لك من أنهم يستشطون القراء ويلهونهم . ونحن إنما نعمل في هذه النهضة لمعالجة اللهو الذي جعل نصف وجودنا السياسي عدماً ؛ ثم ملأ الفراغ الذي جعل نصف حياتنا الاجتماعية بطلاة . وهذا أيضاً مما جعل عمك أبا عثمان في هذه الصحافة من (صعاليك الصحافة) وتركه في المقابلة بينه وبين بعض الكتاب كأنه في أمس وكأنهم في غد . ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

فاشككت أنهم سيطردونه فان الله لم يرزقه لساناً مطبعياً ثرثاراً يكون كالتصل من دماغه بصندوق حروف . . . ولم يجعله كهؤلاء السياسيين الذين يتم بهم النفاق ويتلون ، ولا كهؤلاء الأدباء الذي يتم بهم التضليل ويتشكّل .

ورجع شيخنا كالمخوق أرخى عنه وهو يقول : ويل على الرجل . ويل من الكلام الظريف الذي يقال في الوجه ليدفع في القفا . . . كان ينبغي ألا يملك هذه الصحافة اليومية إلا مجالس الأمة ، فذلك هو إصلاح الأمة والصحافة والكتّاب جميعاً . أما في هذه الصحف فالكتاب يخبز عيشه على نار تأكل منه قدر ما يأكل من عيشه ، ولو أن عمك في خفض ورفاهية وسعة ، لكان في استغنائه عنهم حاجتهم إليه ، ولكن السيف الذي لا يجد

من النتائج

المهديون المنتظرون

لأستاذ كبير

قال الأستاذ محمد عبد الله عنان في مجلته البارحة (ضوء جديد) على مأساة شهيرة (في الجزء ١٨٨) من هذه المجلة: إن رجعة^(١) الحاكم قد بنيت على المقالة المهدوية، وذكر ثلاثة من الجماعة المنتظرة. وقد رأيت أن أطرف قراء (الرسالة) أقوالاً موجزة في (المهديين المنتظرين) بما خطه مؤرخو النحل الإسلامية ونقله رجال الأثر. وأنا في ذلك راو لا ينقد مقالة فرقة، ولا يجادل جماعة مذهب، ولا يضيف شيئاً من عنده إلى نقله. وروايتي هي عن هذه الكتب: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري، الفرق بين الفرق للبغدادى، الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، الملل والنحل للشهرستاني، فرق الشيعة للتوبختي، سنن أبي داود، صحيح الترمذى، المحصل للرازى، شرح مواقف الأيبحى للجرجاني، شرح الدرر المضية للسفاري.

١ - علي بن أبي طالب

قالت السبئية: «إن علياً لم يقتل، ولم يموت، ولا يقتل ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه، ويملا الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً». وهو المهدي المنتظر دون غيره^(٢).

٢ - ابن الحنفية (محمد بن علي)

قالت الكرية الكيسانية: «إن محمد بن الحنفية حتى لم يموت، وإنه في جبل رضوى، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل، يأتمر رزقه غدوة وعشية، وعن يمينه أسد، وعن يساره نمر، يحفظانه من أعدائه؛ وهو المهدي المنتظر^(٣)».

٣ - عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وزعمت الجناحية (فرقة من الكيسانية) أن عبد الله بن

(١) (الرجعة) عند الفروز اقتراب أجلها، إذ مدة (النية) ألف سنة، ورجال الدين منهم في قلق وحيرة لسوء المياد. ويقول بعض لبعض: استندم قربت (الساعة). وشهد (القاهرة) - حسباً سطر في كتب الجماعة - عجائب وغرائب. وتتر فيها أقوام وتتل أقوام...

(٢) البندادي، الترمذى.

(٣) الأشعري، البندادي، الشهرستاني.

والسخر والابتذال وفراغ ما يكتب؛ قال: هذا ما يلائم القراء. وقد يكون من أكذب الناس فيما يدعى لنفسه وما يهول به لتقوية شأنه وإصغار من عداه، فإذا كذبه من يعرفه قال: هذا ما يلائمني. وهو واثق أنه في نوع من القراء ليس عليه إلا أن يملأهم بهذه الدعاوى كما تملأ الساعة، فإذا هم جميعاً يقولون: تلك تلك... تلك...

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل؛ جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمغرب، كله سواء. وكله يائياً^(١). وكان المكي طيب الحجج، ظريف الحيل، عجيب العلل. وكان يدعى كل شيء على غاية الإحكام ولم يحكم شيئاً قط من الجليل ولا من الدقيق. وإذا قد جرى ذكره فأحدثك ببعض أحاديثه. قلت له مرة: أعلمت أن الشاري حدثني أن المخلوع (أى الأمين) بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم، كأنه يخبره أن عنده من الجند بعدد ذلك، وأن المأمون بعث له بديك أعور، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلقط الديك الحب؟

قال: فإن هذا الحديث أنا ولدته، ولكن انظر كيف سار في الآفاق...^(٢)

ثم قال أبو عثمان: وقد زعم أحد أدبائكم أنه اكتشف في تاريخ الأدب اكتشافاً أهمله المتقدمون وغفل عنه المتأخرون، فظهر عملك في هذا الذي ادعاه، فإذا الرجل على التحقيق، كالذي يزعم أنه اكتشف أمريكا في كتاب من كتب الجغرافيا... وما يزال البلهاء يصدقون الكلام المنشور في الصحف لا بأنه صدق ولكن بأنه مكتوب في الجريدة... فلا عجب أن يظن كاتب صفحة الأدب - متى كان مغروراً - أنه إذا تهدد إنساناً فما هددته بصفحته بل بحكومته...

نعم أيها الرجل إنها حكومة ودولة؛ ولكن ويحك: إن ثلاث ذبابات ليست ثلاث قطع من أسطول إنجلترا... ١...

وضحك أبو عثمان وضحكت فاستيقظت

(خطا)

مصطفى صادق الرافعي

(١) و (٢) هذا من كلام الملاحظ